المحاضرة :08 الازدواجية اللغوية

1-تمهيد:

ظهر مصطلح الازدواجية اللغوية سنة 1959 على يد "شارل فارغيسون"(Charles Fergusson) فقد حددها على أنها العلاقة الثابتة بين ضربين بديلين ينتميان إلى أصل لغويي واحد أحدهما راق والآخر وضيع (كالعربية الفصحى وعاميتها)، فالازدواجية خاصة بمستويين مختلفين من اللغة، أحدهما يستخدم في المواقف الرسمية ويكتب به الأدب إلا أن الأقلية تتحدث به، والمستوى الثاني يستخدم في الظروف العادية واليومية وهو ما تتحدث به الأكثرية. وتوصل "شارل فارغيسون" إلى استخلاص النتائج التالية:

*اللغّة الرفّيعة تتسّم بالنفّوذ، وهي لغة التعّليم والمعاملات الرسّمية والطقّوس الديّنية، ولغة الآداب المكتوبة والتي تعود إلى حقبة زمنية بعيدة.

*اللغّة الوضيعة هي لغة التداول اليومي مما يكسبها سمة (اللغّة الوضيعة) وهي لغة الأحاديث الحميمية، والآداب الشفوية الشعبية.

*تستمر حياة اللغّة الرفّيعة إلى جانب اللغّة الوضيعة لعدة قرون، وتنتمي هاتان اللغّتان إلى نفس السلّالة اللغّوية.

*البنية النحّوية للغّة الرفّيعة أكثر تعقيدا منه بكثير في اللغّة الوضيعة، أما من الناحية الصوّتية والمعجمية فبينهما تطابق متعددّ.

2- تعريف الازدواجية اللغوية:

الإزدواجية اللغوية :Le bilinguisme لقد اختلف اللسانيون حول مفهوم مصطلح (الازدواج اللغوي) فبعضهم يطلقه على وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة، أي لغة للحديث وأخرى للعلم والأدب والثقافة والفكر، وبعضهم يطلقه على وجود لغتين مختلفتين (قومية وأجنبية) عند فرد أو جماعة ما في آن واحد، أي إنه ومصطلح (الثنائية) يتبادلان الموقع عند الباحثين، وأفضل إطلاق مصطلح الازدواج اللغوي على المفهوم الأول لأنه أشيع بين الباحثين ولأن المعجم يدعم هذا .

و يقصدبـ "ازدواجية اللغة (le biliguisme)" وجود لغتين مختلفتين ،عند فرد ما ، أو جماعة ما ، في آن واحد [1] ، و من دون الدخول في بحث المعايير التي بوساطتها نستطيع أن نؤكد أو ننفي وجود الازدواجية بين لغتين معينتين ، فإن بعض الباحثين يرفضون استعمال مصطلح " الازدواجية " الذي يستخدمه الكثير من اللغويين[2] للدلالة على شكلي اللغة العربية : الفصحى و العامية[3] . ذلك أن العامية و الفصحى فصيلتان من لغة واحدة، و الفرق بينهما بالتالي فرق فرعي ، لا جذري . و عليه ، فالازدواجية الحق لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين ،كما بين الفرنسية و العربية ، أو الألمانية و التركية . أما أن يكون للعربي لغتان إحداهما عامية ،و الأخرى عربية فصيحة ، فذلك أمر لا ينطبق مفهوم الازدواجية عليه ، إنه بالأحرى

---

[1] Jean Dubois et autres : Dictionnaire de linguistique, P,65-

[2] انظر مثلا : نحو عربية ميسرة : أنيس فريحة ، ص 134 ، 135 ، 137 ، و غيرها . و في فلسفة اللغة : كمال الحاج ، ص 222.

[3] انظرSélim Abou , le bilinguisme Arabe Français au Liban ; p223 :

ضرب من " الثنائية اللغوية [4]. diglossie " فيرون أن أمر الفصحى العامية نوع من الثنائية، و ذلك لأنهما فصيلتان من لغة واحدة ، في حين أن الازدواجية لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين كالعربية و الفرنسية.

تتعدد التعريفات التي أخذت على عاتقها تحليل مفهوم الازدواجية اللغوية، نستند على ما ورد في المعاجم اللسانية في استعراض مفهومها، يعرفها روبير غاليسون ود.كوست أنها«: **الأفراد الذين سمحت لهم الظروف التكلم بلغتين مختلفتين** [5] »مثل الفرد الجزائري الذي يتكلم العربية والامازيغية /العربية والفرنسية /و الأمازيغية الفرنسية .ومن الباحثين المتخصصين من يرى في الازدواجية ما يتحقق فيه الفصل بين اللغتين، معنى هذا أن لا يخلط المتكلم بين بنيات اللغتين المختلفتين، وإنما يستعملها دوريا حسب ما تفرضه عليه البيئة والظروف اللغوية، يعرفها جون ديبوا بأنها: «**الحالة اللغوية التي يستخدم فيها المتكلمون لغتين مختلفتين بالتناوب وحسب البيئة والظروف اللغوية** »[6] . ويعرفها أندري مارتيني بنظره إلى الفرد مزدوج اللغة فيجد أنه «**الشخص الذي يمارس لغتين بنفس الكفاءة**» . من خلال هذه التعريفات نستشف أن الازدواجية اللغوية هو التوظيف اللغوية لنظامين لغويين مختلفين وبشكل دوري، وهاتين الخصيتين تميزان الازدواجية اللغوية عن المفاهيم الأخرى القريبة .ويعرفها شارل فرغسون على أنها«**الحالة اللغوي الثابتة والقارة، تتضمن نمطين لغويين نمطا لغويا عاليا وراقيا معترف به يتعلمه الناس في المدارس الحكومية** » .

يؤكد فرغسون في تعريفه هذا إلى الجانب الرسمي الذي يجب أن تتسم به اللغتين المستعملتين، فنظره إلى ظاهرة الازدواجية اللغوية كانت من خلال اللغة الآلمانية والسويسرية واليونانية والعربية، وفي خضم ذلك أشار إلى مفهومين قاعديين والعلاقة اللازمة بينهما وهما الطبقات اللغوية والطبقات الاجتماعية .وتضمن حديثه عن العربية من منظور اللغة بمستويين المستوى العالي و المستوى الوضيع ممثلا لهما باللغة العربية الفصيحة للأول والعاميات المنبثقة عنها للمستوى الثاني.

أسباب ظهور الازدواجية اللغوية:

العامل التاريخي : و يتجلى لنا دور العامل التاريخي في تكريس الازدواجية اللغوية في الاحتلال بأشكاله و أساليبه المختلفة: و يتمثل لنا ذلك في تلك الطرائق و الأساليب الجهنمية التي يتعامل بها الاحتلال، أينما وجد، وحيثما حل، إذ أول ما يقوم به المحتل هو ضرب لغة الدولة المحْتَلَة ، لأنه يعرف من أين تأكل الكتف ، يعرف جيدا أن اللغة عامل توحيد و تفريق في آن واحد، لهذا نراه يركز بإتقان فرض لغته قولا و فعلا . فأما القول فيتجلى في تلك الدعوات التي تتعالى هنا و هناك ، على ألسنة المستشرقين وأتباعهم الحاقدين على اللغة العربية ، كما هو الحال في مصر ، و سورية و لبنان .... و أما الفعل ، فيتجسد في الميدان عن طريق فرض لغة المستعمر بالقوة على الأهالي و السكان الأصليين ، و تضييق الخناق على لغتهم الأصلية ، كما حدث في الجزائر و غيره من الدول المغاربية المجاورة وكذلك الهجرة: إذ انتقلت مجموعات من الناس من لغتهم الأم إلى لغة جديد ة.، ضف إلى ذلك التجارة و تواصل الناس مع شعوب تتحدث لغات مختلفة.

---

[4] Vincent Monteil ; L'arabe modern ; Librairie C.Kinckseick; Paris; 1960; p.69

[5] ينظر: في فقه اللغة و قضايا العربية : د/ سميح أبو مغلي ، ص 62 ’ 63 و علم وظائف الأصوات اللغوية . الفونولوجيا . : د/ عصام نور الدين ، ص134 ، 135

[6] علم وظائف الأصوات اللغوية . الفونولوجيا . : د/ عصام نور الدين ، ص135

العامل التعليمي:

ضعف مناهج التدريس و قصورها في منهجية تعليم اللغة العربية ، و النظرة التربوية القاصرة عن إدراك أهمية تعليمية الأطفال في مراحل دراساتهم الأولى ، و دورها الفعال في بناء الكيان التربوي السليم للطفولة البريئة .إذ كثيرا ما نجد القائمين على هذا القطاع الحساس ـ عكس الدول المتقدمة ـ يعينون معلمين من ذوي المستويات الدنيا لتعليم هذه الشريحة الهامة ، جاهلين أو متجاهلين أن فاقد الشيء لا يعطيه ، إذ " إننا ما زلنا نظن أن تعليم الطفل أهون أنواع التعليم ، و أدى هذا إلى أننا أصبحنا نقيس مقدار المعلم بعمر الطفل الذي يتولى تربيته و تعليمه ، صعودا و هبوطا ، فمعلم الإعدادي أكثر احتراما من معلم الابتدائي ، و أقل مركزا من مدرس المدارس الثانوية ... و هي فكرة ساذجة مدمرة لنفسية هذا المعلم ، الذي وضعنا بين يديه هذه العجينة اللينة ـ طفل اليوم و رجل المستقبل ، ليجعل منه مواطنا صالحا أو شيطانا ماردا "[7]. فيجب على الدولة أن تهتم اهتمام كبيرا و جديا في إعداد مدرس اللغة العربية، و معالجة التدريس المتدني بكل قوة و صراحة فمن المؤلم أن نجد معلم العربية سواء في المدرسة الابتدائية ، أو الثانوية أو حتى الجامعة يتحدث بالعامية و هو يقوم بواجبه ، و من البديهي أنه لا يمكن و الحال هذه أن يحاسب طلبته على أخطائهم اللغوية و النحوية و الإملائية.

العامل الاجتماعي:

تعد اللغة من أهم الروابط المتينة التي تربط أفراد الجماعة اللغوية بعضها ببعض ،فـ" إن وجود اللغة يشترط وجود مجتمع ، وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للغة ، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه و تتعامل به ، فاللغة ليست هدفا في ذاتها ، و إنما هي وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الإنسانية "[8]

فإذا نظرنا إلى المجتمعات العربية وجدناها تتكلم خليطا بين اللغة الأجنبية والعربية واللهجات المحلية باختلاف مناطق الوطن، فقد تجد في العائلة الواحدة، المعرب، والمفرنس، والمزدوج اللغة، ومن لا يحسن لا الفصحى ولا اللغة الأجنبية أو يجمع قليلا من الاثنين؛ وليس بمقدور أحد أن يعطي نسبة المتكلمين بهذه اللغة أو تلك ، مما يجعل اللغة العربية و من اتخذها لسانا له محاصرين ، و عاجزين عن أداء أبسط وظائفهم المتمثلة في التواصل و التعبير عن رغباتهم وآلامهم ، خاصة إذا سلمنا بأن "للغة أثرا فعالا في حياة الفرد و المجتمع ، فهي بالنسبة للفرد وسيلة لاتصاله بغيره ، و عن طريق اتصاله بغيره يدرك الفرد أغراضه و يحصل على رغباته ، كما أنها وسيلته التي يعبر بها عن آماله و آلامه و عواطفه ،و اللغة تهيئ للفرد فرصا كثيرة للانتفاع بأوقات فراغه ، و ذلك عن طريق القراءة و المطالعة و الاستمتاع بالمقروء ، فيغذي الفرد بذلك عواطفه ، و هي أداته التي يقنع بها غيره في مجالات المناظرة و المناقشة و تبادل الرأي ، كما أنه أداته التي ينصح بها الآخرين و يرشدهم و ينشر بوساطتها المبادئ بينهم و يؤثر فيهم ..."[9].

العامل النفسي : إن العامل النفسي الذي كرس الازدواجية اللغوية يتجلى لنا بوضوح في

ـ الشعور الذي انتاب المجتمعات العربية بصعوبة اللغة العربية الفصحى ، لما تحويه من قواعد نحوية و صرفية و إملائية جامدة معقدة ، مما جعلهم يعزُفون عنها . و هذا الشعور الذي ولّد عندهم النفورَ منها ، و الرغبةَ عنها ، وليد الاستعمار بأنواعه

---

[7] دراسات و تعليقات في اللغة : د/ رمضان عبد التواب ، ص 228 ، 229

[8] مدخل إلى علم اللغة ـ المجالات و الاتجاهات: د/ محمود فهمي حجازي ، ص 16

[9] في فقه اللغة و قضايا العربية: د/ سميح أبو مغلي ، ط1 ـ دار مجدلاوي للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 1987م ، ص 256

المختلفة و أذنابه في الداخل و الخارج ، فقد أصبح " الاعتزاز باللغة العربية هزيلا . إن لم نقل منعدما . يقابله مد زاخر قاهر من الإعجاب باللغات الأوروبية ، و التأثر بها و الاقتباس منها ، بمناسبة و غير مناسبة "[10].

. الإحساس بالانهزامية النفسية لدى مستخدمي اللغة العربية ، جراء تلك الصيحات المتعالية هنا وهناك ،زاعمة أن اللغة العربية الفصحى ليست لغة علم و تطورو حضارة ، بل هي لغة متحفية و ظاهرة انتروبولوجية تُدرّسُ و فقط . مما أدى إلى توليد مركب نقص لديهم ، جعلهم يشعرون بالدونية . بل كثيرا ما نلاحظ و نسمع أن طلاب معهد اللغة العربية و آدابها أصبحوا محبطين نفسيا لأنهم يدرسون اللغة العربية التي أصبحت في مجتمعنا ينظر إليها بعين الريبة ، و في المقابل نجد طلاب اللغات الأجنبية ، يفتخرون ويعتزون ، لكونهم يدرسون اللغة الفرنسية أو الإنجليزية باعتبارهما لغتي علم و تطور ،و أصبحوا يعدون تعلم اللغة العربية موضة قديمة أكل عليها الدهر و شرب ، مما أدى إلى العزوف عن تعلمها ، بل إلى حد اعتبار ذلك مضيعة للوقت .

خصائص ازدواجية اللغة:

من الخصائص والمميزات الواجب توافرها في لغة مجتمع ما كي يتم اعتبار هذا الوضع اللغوي صالحًا لوصفه بازدواجية اللغة، وقد أورد فرغيسون في بحثه الخصائص أوالصفات التالية[9]:

1. الوظيفة function:

يعتبر فرغيسون ومعظم الذين اتبعوه في دراسة ظاهرة ازدواجية اللغة أن الوظيفة التي يؤديها الشكل اللغوي من أهم خصائص هذه الظاهرة، فهناك بعض المناسبات أو الأوضاع الإجتماعية التي تحتم استخدام اللهجة العليا، كاللهجة العربية الفصحى في مثاله عن اللغة العربية، بينما هناك بعض الأوضاع التي يكون استخدام اللهجة الدنيا، كاللهجة المصرية المتحدثة في القاهرة ضرورة حتمية؛ وهذا الاختلاف في الوظيفة يحدث في كل المجتمعات وباختلاف أفراد المجتمع، فلا نستطيع استعمال لهجة متدنية في مقام رفيع، فكل مكان أو مناسبة ما علينا أن نستخدم اللهجة المناسبة لها، كالمناسبات الدينية مثلا نستعمل الشكل اللغوي الأعلى، أما التحدث مع شخص ما في الشارع نستعمل الشكل اللغوي الأدبي كالعامية.

2. المنزلة prestige:

الخاصية الثانية من خصائص ازدواجية اللغة هي المنزلة فاللهجة العليا يعتبرها جميع أفراد المجتمع لهجة عالية المستوى، ولا يقارن مستواها بمستوى اللهجة الدنيا، هذا الاحترام العميق أو المقام العالي الذي تتمتع به اللهجة العليا قد يقود بعض أفراد المجتمع إلى إنكار وجود اللهجة الدنيا؛ فتطور اللغة العربية وما بلغته من مكانة رفيعة في وسط أفراد المجتمع أمر طبيعي مثل باقي اللغات الأخرى، فمنزلة العربية الفصحى تجعلها في أعلى المراتب عكس اللهجة العامية والتي تعتبر إنحرافا لغويا عن الفصحى.

- التراث الأدبي: literary hertage

في جميع الحالات الدراسية التي ذكرها فرجسون، دائمًا ما يتمتع الشكل الأعلى من اللغة بتراث أدبي أكبر من التراث الأدبي الذي تحظى به اللهجة الدنيا؛ إلا أن هناك من أفراد المجتمع من يرى أن التراث الأدبي للهجة الدنيا كالعامية يمثل أدبًا حقيقياً كالأدب الشعبي وما يحويه من ألغاز وأمثال وحكم ونكت...الخ، فهو جدير بالدراسة والتحليل.

---

[10] المهارات اللغوية و عروبة اللسان: د/ فخر الدين قباوة ، ص 18

- الاكتساب Acquisition:

يقصد بالاكتساب هنا الوسيلة التي يتم عن طريقها اكتساب اللغة كلغة أم، بحيث يرى فرغسون أنه يستخدم البالغون اللهجة العامية أو المحلية (الشكل اللغوي الأدنى) عندما يتحدثون مع أطفالهم، كما أن الأطفال يستخدمون هذا الشكل اللغوي عندما يتحدثون فيما بينهم؛ فالشكل اللغوي الأدنى أو العامية تكتسب سريعًا باعتبارها لغة الحوار اليومي، في حين تصبح الفصحى ثقيلة نوعًا ما عند البعض باعتبارها لغة الحوار داخل المؤسسات التعليمية فقط.

- الثبات stability:

تعتبر ظاهرة ازدواجية اللغة وضعًا لغويًا ثابتًا من الممكن استمراره لمئات الأعوام، وفي بعض الحالات قد يصل عمر هذا الثبات إلى ألف عام، فخاصية الثبات تصف وضع اللغة العربية وصفًا جيدًا ولكن هذه الازدواجية لا تلبث أن يستبدل بها بظهور شكل جديد أقل ثباتا ومعايرة، ويكون وسطا بين الشكلين اللغويين.

- القواعد النحوية: Grammair

عندما نذكر كلمة (القواعد) فإن أول ما يتبادر إلى أذهاننا قواعد اللغة العربية أو النحو، والذي لا يشمل الصرف والتراكيب الصوتية وما إليه (...)، ففي مجتمع ازدواجية اللغة يكون هناك اختلاف كبير بين التراكيب النحوية في الشكلين اللغويين الأعلى والأدنى(...)، فالشكل اللغوي الأدنى يفتقر إلى نظام الموافقة بين الأسماء والأفعال التي تتبعها، وهذه الموافقة تكون معدومة تماما في الشكل اللغوي الأدنى، أو قد يكون وجودها على درجة أقل بمراحل من وجودها في الشكل اللغوي الأعلى.

مما سبق ذكره من الخصائص التي تميز الازدواجية اللغوية يبقى دائما تفاوت ولو بالقدر القليل بين اللغة العربية ذات المستوى العال، واللغة الدنيا (اللهجة) ذات المستوى المتدني، والتي تعتبر في نظر بعض الأشخاص انحطاطا عن العربية الفصحى.

مما تقدم يتضح لنا أن مشكل الازدواج اللغوي في البلاد العربية أصبح مشكلا عويصا يصعب حله ، و داءا خطيرا يجب الإسراع في معالجته من الجذور،و هذا لا يتأتى إلا بتضافر الجهود. فلا يستطيع ذلك اللساني وحده ، كما يستعصي على السياسي لوحده كذلك ، بل يجب أن يجلس كلاهما على طاولة واحدة للنقاش الهادئ ، و الحوار البناء ، و التشاور المثمر ، لإخراج الأمة العربية المسلمة المستقلة من هذا المأزق الخطير الذي أراه يتنامى و يكبر يوما بعد يوم . و لكن هذا لا يعني أنني ضد تعلم اللغات الأجنبية، باعتبارها ضرورة يستدعيها الانفتاح على الثقافات الأخرى أخذاً وعطاء ، بل أنا من دعاة ذلك ، و شعاري دائما هو " من تعلم لغة قوم أمن شرهم ".